مجلة فصلية محكمة تعنى بالبحوث والدراسات اللغوية والتربوية

الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة

قسم الإعلام – دار اللغة العربية

رقم الإيداع في دار الوثائق

العراقية ١٩٦٣ لسنة ٢٠١٤

www.alh.imamhussain.org

E-mail: daralarabia@imamhussain.org

mob: +9647827236864 — +96447721458001

الإِمَامُ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّادِقُ(ت١٤٨هـ)والتَّأْسِيسُ لِلمَنْهجِ الافتراضي والتّعْلِيليّ فِي النَّحْوِ الْعَرَبِيّ

Imam Ja›far bin Mohammed Al-Sadig (١٤٨ A.H) and the Foundation of Presumptive and Justificatory Approach in Arabic Grammar

أ.م.د. حَسَن عبدالغني الأسدي
كلِّيَّة التَّرْبِيَّةِ لِلْعُلُومِ الإنسانية،جامعة كَرْبَلاء
By: Assist .Prof .Dr .Hassan Abdulghany Al-Assady,
College of Education for Human Sciences, and University of Kerbala

ملخص البحث

يرصد البحث موضعا تأسيسيّا ورياديّاً للإمام الصادق(عليه السلام) لم يلتفت إليه الدارسون، وهو وضع الأسس المنهجيّة للعلوم بقيامها على النظر والتدبر والبحث عن العلل الكامنة خلف الظواهر الملاحظة ، فلا يكتفي الإنسان بما يراه ويسمعه بل عليه أن يكشف عن النظام الكامن خلف ذلك، وعلى قدر تعلق الأمر بنا في مجال تخصص الدراسة النحوية لاحظت أن كلام الإمام الصادق(عليه السلام) وتوجيهاته العلميّة قد أسهمت إسهاما فاعلا في تطور الدرس النحويّ عند الخليل وسيبويه، وقد ورد هذا الموضع فيما أملاه الإمام على صاحبه المفضل بن عمر الجعفيّ، وقد عرف هذا الإملاء بـ(توحيد المفضّل).

وفي هذا الصدد ذكر الإمام أن هؤلاء الذين ينكرون وجود الله وتدبيره للكون، بمنزلة العميان الذين إذا دخلوا داراً قد بنيت أتقن بناء وأحسنه، وفرشت بأحسن الفرش، وأفخره، وأعدّ فيها ضروب الأطعمة والأشربة والملابس لا يستبينون الحكمة فيه سواء بأجزاء ذلك الدار أم بهيأته الكليّة؛ فهم لا يُبْصِرون بِنْيَة الدّار؛ بل هم يتعجّلون ذمّ الدّار وبانيها؟. والحقيقة أنّهم لم يسارعوا إلى ذلك إلّا بعد أنْ عَزِبت أذهانهم عن معرفة الأَسباب والعلل في الأشياء. إنّ هذا المنحى العلمي عند الإمام الصّادق(عليه السلام) الكاشف عن فهم عميق لما يحيط بالإنسان، وعدم الاكتفاء بالظّاهر منه، واشتمل على دعوة منهجيّة يعكسها مستويان للنظر:

المستوى الأول: الرؤية الكليّة والطّابع الافتراضيّ المقترن بها باستعماله التّشبيه بالدّار بوصفه بنية كليّة.

المستوى الثانيّ: التأسيس البنائيّ أو بالأحرى الإنشائي الناظر الى كيفية تكوّن الأشياء وكيفية امتداد أجزائها وترابطها الخطيّ أفقيّا أو عموديّا. وهو الذي يُلمَح من استعمال الإمام لفظة الدّار التي تشتمل على البناء والأجزاء التي يستند بعضها الى بعض.

ولقد كان هذان المستويان حاضرين في الجديد الّذي أتى به الخليل وسيبويه، اللّذان كانا قد قدّما درساً نحويّاً مختلفاً عن الدّرس النّحويّ عند معاصريهم من النّحويّين، فهذا الخليل قد أخذ بقول الإمام الصادق في النظر الكليّ والطابع الافتراضي، وإظهار العلل بل اقتراحها لمسالك العرب في كلامها

وقد عاب سيبويه على النّحويين اكتفاءهم بالشكل ومعرفة الاعراب. وبهذا فإنّ ريادة منهجيّة يجب أن تسجل للإمام الصّادق ومن ثمّ لتلميذه الخليل، كان لها الأثر الفاعل في التأسيس لمسار جديد في علم النّحو، ونظرياته ولا سيَّما عند سيبويه. وهي تكشف أسس الانتقال الى المرحلة الجديدة بعوامل من داخل البيئة التي نشأ بها النّحو العربيّ وتطوّر، مفنِّدة زعم الزّاعمين بآثار خارجيّة أثرت في تكوين هذا العلم وتحديد مساراته.

Abstract

The research looks closely at foundational and leading topic which was created by Imam Al-Sadig (pbuh), and which scholars have not dealt with before. He put the methodological bases of sciences founded on consideration, reflection and looking for the reasons underlying the observed phenomena. A human should not be content with only what he sees and hears but he has to reveal the system behind it. As far as the area of grammar is concerned, we have noted that Imam Sadig's (PBUH) words and scientific guidelines contributed effectively to the evolution of the grammar of Al-Khalil and Sibawayh. This topic was referred to when Imam Sadig dictated it to his fellow Al-Mufadel Bin Omar Ja'fi, and was known as Tawhyd Al-Mufadel.

Imam Sadig's methodology was reflected in two levels:

first level: the total observation and the hypothetical feature associated with it when he used simile to refer to the house as a complete structure.

level II: constructional or compositional structure which refers to how things are and how their parts are stretched and their horizontal or vertical interrelationships.

Sibawayh criticized the grammarians because of their contentment in form and declension. Thus, the pioneering methodology must be acknowledged to Imam Sadig and then his student, Al-Khalil who had an impact in the creation of a new course in science of grammar, and its theories, especially with Sibawayh. It is revealed that the foundations of the transition to a new stage was caused by factors within the environment in which the Arabic grammar was created and evolved, and refutes the claim that it was caused by external factors which affected the creation of this science and the direction of its paths

المقدمة

لقد أضحى التّوجه نحو تعليل الظّواهر ولا سيَّما الظَّواهر النَّحويَّة من كبريات المسائل الأصوليّة، والتّحليليّة في النّحو العربيّ،وقُدِّمت داخل إطار هذا التعليل طائفة من النظريّات النّحويّة التي تندرج في ضمن علم النّحو، وهذا التّوجه في دراسة كلام العرب وتناوله عبر هذا المسار من النّظر النّحويّ أسهم في إثراء الدراسات النّحويّة العربيّة على نحو واضح، وكان من جملة هذا الإثراء أنْ تمّ طرح عدّة نظريات في سبيل فهم متكامل للكلام، بمختلف مستوياته وأنماطه. والملاحظ ((أنّ تعليل الظواهر النّحوية شغل –على ما يبدو– مكاناً فسيحاً من الدراسات التّطبيقية للمادة النّحويّة قبل أن يشغل ذلك المكان من الدراسات التنظيريّة، بمعنى آخر إنّ المتقدمين من أئمة العربيّة قد اهتمّوا اهتماماً واسعاً بالتعليل، وهو الأساس في التّحليل النّحويّ وشاركهم في ذلك المتأخّرون؛ ولاسيَّما عند من ألّف في الأصول النحويّة على ما بين الفريقين من اختلاف منهجيّ في تناول الموضوع))(١). وكان التعليل في كتاب سيبويه معلماً بارزا من معالم درس سيبويه النحويّ على نحو طبع منهجه بطابعه الجديد وهو طابع أستاذه الخليل باختياره منهج التعليل والتفسير، فقد كان لفظ (التفسير) من الألفاظ التي مال سيبويه إلى استعمالها، ولاسيما عند تناوله الجمل المحوّلة للكشف عن بنيتها الأساسية أو توجيه بعض التركيبات وجهة مقبولة تسعف به آلية من آليات فهم الجملة الذيّ اختار له مصطلحا لم يلتفت إليه أحدٌ من السابقين أو المحدثين وهذا مصطلح هو الخُلْف (سآتي على ذكره لاحقا) وقد وظفه سيبويه لإظهار بيئة الجملة أو مقامها الافتراضيّ.

المبحث الأول

إرهاصات التفكير الافتراضيّ والتّعليليّ في النّحو العربيّ

لعل أول ما يتوجّه الباحثون إليه في هذا الشّأن هو تناول أوّل من علّل الاستعمال العربي لما يشتمل عليه الكلام من مظاهر؛ وفي العادة نراهم يوردون ههنا ما ذكره ابن سلام (٢٣١هـ) عن عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي المتوفى(ت١١٧هـ) من أنّه((كان أول من بعج النحو، ومد القياس والعلل))(٢). وكأنّ القول بالعلل يمثّل منهجيّة قارة في النحو العربي. ويمكننا –على هذا - القول بأنّ التعليل يمكن أن يكون سابقا لابن أبي إسحاق بمدّة، لقول ابن سلام أنّه مدّ القياس والعلل ما يعني أنّه استزادهما ، ولمّا كان الحال أنّ نحو الحضرمي لم يصل إلينا، فلا نستطيع أنْ نتبيّن حقيقة هذا السبق؛ كما أنّ ما أورده سيبويه عنه لا يساعدنا في بناء هذه الصورة، فعلى قلّة تلك الإشارات فقسم منها قراءات للحضرميّ وليستْ من نحوه، والقسم الآخر هو ممّا رواه الحضرميّ عن بعض العرب واختيارهم فيه حالة إعرابية ما. ويضاف على ذلك أنّ هذا الوصف صدر من ابن سلام وهو امرؤ غير نحويّ وروايته متأخرة فهي في القرن الثالث الهجريّ ما يدعونا إلى تأكيد ما ذهب إليه بعض المحدثين بقوله:((الأمر الذي جعل أحقُّ بهذا القول الخليل بن أحمد الفراهيديّ (ت١٧٠هـ) فيمكن أن نعدّه أول من بسط القول في العلل النّحويّة))(٣). وقد عرف عند المتقدمين أنّه:((هو الذي بسط النّحو ومدّ أطنابه،وسبّب علله،وفتق معانيه،وأوضح الحِجاجَ فيه،حتّى بلغ أقصى حدوده وانتهى إلى أبعد غاياته...))(٤).

ولهذا القول مصاديق عدّة؛ منها ما جاء في ولادة كتاب تلميذه سيبويه(ت١٨٠هـ) فقد نصَّت بعض الروايات على رغبة سيبويه بإحياء علم أستاذه، ودعا من دعا ليشركه في هذا العمل، ولكن على ما يبدو لم يجد من يلبّي دعوته هذه؟!؛ فتصدّى لهذه المهمة وحده، فخلّد بذلك علم أستاذه وخلّد علمه وبراعته في إظهار صورة جديدة للدرس النحويّ بل للدّرس اللسانيّ العربي عامّة. إنّ النحو الذي نسج أبواب ومسارات تحليله الخليل وسيبويه كان فيما نزعم مختلفا جداً عن بقية ما قدّمه نحويو ذلك العصر، وكذا اختلف عنهما من جاء بعدهما من نحويي العربية، الذين يدعون بصورة أو بأخرى سيرهم على خطواتهما.

إنّ التحوّل الذي ظهر عند الخليل وسيبويه في كيفية فهمهم النحو العربيّ؛ يمثل خطوة هي غاية في الأهمية، أهلت أن يكون التحليل النحويّ المعتمد في الكتاب مختلفاً في آلياته ووسائله عمّا ألفه المعاصرون. وكان سيبويه قد عاب على النحويين اكتفاءهم بما هو من ظاهر الكلام (أي: الإعراب) وعدم عنايتهم بتأمّل وجوه الصواب والخطأ في الكلام. وتدلّ على ذلك نصوص من الكتاب نذكر منها قوله: ((وإنّما ذكر الخليل-رحمه الله- هذا لتعرف ما يُحال منه وما يحسن؛فإنّ النحويين مما يتهاونون بالخُلْف إذا عرفوا الإعراب.وذلك أنّ رجلاً من إخوانك ومعرفتك لو أراد أن يُخبرك عن نفسه أو عن غيره بأمرٍ فقال:انا عبدالله منطلقاً،وهو زيدٌ منطلقاً،كان محالاً؛لأنّه إنّما

أراد أن يخبرك بالانطلاق ولم يقل هو،ولا أنا حتى استغنيت أنت عن التسمية؛ لأنّ هو وأنا علامتان للمضمر،وإنّما يُضمِر إذا عَلِم أنّك قد عرفت من يعني.إلاّ أنّ رجلاً لو كان خلفَ حائط،أو في موضعٍ تجهله فيه فقلت:من أنت؟فقال:أنا عبدُالله منطلقاً في حاجتك كان حسناً))(٥).

من هنا مع أمثلة أخرى أمكن رصدها في الكتاب يتّضح أنّ مفهوم الخُلْف (٦)عند سيبويه هو ما يمكن أن تمثّله الوسائل والقرائن المحيطة باستعمال الجملة، ويدخل في ذلك سياق الحال الحقيقي(أو المقامي) كما في أمثال العرب التي رصدها سيبويه فهو ينقل ما رواه العرب في سببها، والسياق الآخر سياق مفترض يستقى من الكلام بمساعد الإعراب وهو يعبر عن المحتوى الدلاليّ للجملة.

وأيضا قول سيبويه:((فإن قال:أقول مررتُ بقائماً رجلٍ؛فهذا أخبث من قِبَل أنّه لا يفصل بين الجار والمجرور.ومن ثمَّ أُسقط:ربّ قائماً رجلٍ.فهذا كلام قبيح وضعيف.فاعرف قبحه،فإنَّ إعرابه يسير.ولو استحسناه لقلنا هو بمنزلة:فيها قائماً رجلٌ؛ولكن معرفة قبحه أمثلُ من إعرابه))(٧).

وعلى هذا فـ((المنهج المتأمل في الظاهرة النحوية باحثاً عما تشمل الجملة من دلالات مقاليّة ومقاميّة غير لغويّة يمكن أن يكون منهجاً جديداً لم يسبق الخليلَ وسيبويه أحدٌ إليه.وهو الأمر الذي يصوّر بروز اتجاهٍ حديث في فهم النصوص اللغويّة))(٨) مثّله الدرس النحوي عندهما،ولو تأمّلنا في هذا لوجدنا أنّ المنهج التّعليليّ(التّفسيريّ) الذي تبنّاه سيبويه عن طريق أستاذه الخليل هو الذي فارق بين توجهاتهما وتوجهات معاصريهما، ولهذا فوصفه بالحديث نسبة للجدة التي برزت في نحوهما لا سيّما أنّ النصين السابقين اللذين أوردناهما عن سيبويه وصف النحويين المعاصرين بقصورهم نحوهم على معرفة الإعراب، من دون أن يكون لهم باع في تأمّل الكلام لمعرفة علل الاستقامة والإحالة في الكلام ولا أن يأخذوا بأسبابهما أو بمقام الكلام(٩). ولقد كان من ثمار هذا المنهج هو محاولات سيبويه بناء نسق من العلاقات النّحويّة، والدّلاليّة تقوم عليها الجمل العربية، بل نسق من العلاقات بين مكونات تلك الجمل؛ يصلح أنْ يكون إطاراً للكشف عن الأصل الكليّ(الافتراضيّ) للجملة العربية وتفسير علاقات الربط بين الوظائف النحوية، في تحولاتها المتنوعة عن ذلك الأصل (١٠).

والافتراض الذي نعنيه:هو المنهج الذي يتخذ من المنطوق والواقع وسيلة له لبناء تصوّر كلّيّ، يمثل الصورة التجريديّة لذلك المنطوق سعيا منه نحو تقديم فهم عميق لطبيعة العلاقات التركيبية، والدلاليّة القائمة بين وحدات الكلام.

والافتراضيّة كما يقول بعض الباحثين:((هي محاولة تشكل تلك العلاقة الهامّة والخطيرة في الوقت نفسه بين المرسل والمرسل إليه، حيث يحاول المؤول أنْ يفهم المثيرات الدلاليّة التّي يشير إليها النصّ، وما الأمر الذي يدور حوله مغزى النصّ، فهو يبذل جهداً كبيراً محاولاً أنْ يقف على حقيقة المعنى الذي تتضمنه العبارة أو الجملة، فيعمل فيها الفكر، ويسعى لإدراك

كل معاني الكلام المضمرة، ويحاول الوصول إلى تفسيراتها الممكنة)) (١١).وهذا المنهج الافتراضي ينسجم مع التوجه العام للتعليل اللغوي، بل هو مسار من مساراته.

وكما يرى بعض المعاصرين أن سيبويه لم يكن ((وهو يضع البناء النظريّ والقوانين الكلية للغة العربية معزولاً عن انجازات الفقهاء والقراء والمحدثين والمتكلمين...)) (١٢)،وقد ذهب بعض الدارسين إلى تأثر النحاة بالفقهاء ، ولا سيما بأبي حنيفة وتلامذته ممن أعملوا القياس في مسائلهم الفقهية فقال:((الافتراض أسلوب فقهي معروف كان عليه أبو حنيفة وشيوخه خاصة من رجال الدين وقد أفاد منه النحاة منذ زمن مبكر، إذ رأينا منه في نحو الحضرميّ، وأبي عمرو وعيسى ويونس، غير أنّ الخليل أكثر منه)) (١٣). ويبدو أن الحماس تجاه مدرسة الرأي الفقهيّة بزعامة أبي حنيفة، حال دون أن ينظر هذا الباحث في صغر عمر أبي حنيفة(٨٠هـ-١٥٠هـ) قياسا الى النشاط العلمي لدى كلٍّ من عبدالله بن أسحاق الحضرميّ(ت١١٧هـ)، أو معاصرته لأبي عمرو بن العلاء(٧٠-١٥٤هـ) وشهرة الأخير العلمية في اللّغة وعلم العربيّة والقراءات قياسا بأبي حنيفة، ولا سيّما أنّ شهرة مذهبه أتت عبر تلامذته(أبي يوسف قاضي القضاة عند هارون الرشيد وتلميذه محمّد بن الحسن الشيبانيّ) على أن القول بالتأثير ممّا يحمل على الظن ويفتقر إلى الأدلة.

ثمّإنّ ما جاء به أبو حنيفة في هذا المجال هو القياس بوصفه آليّة لنقل الحكم من هذه المسألة الفقهية إلى مسألة أخرى، وهو أمر لم يكن محموداً لدى بقية الفقهاء ولا سيَّما أستاذه الإمام جعفر الصادق(عليه السلام) الذي نهاه عن ذلك وأسقط حجته لكون قياسه لا يطرد، وأنّه ليس من وسائل معرفة الشريعة، فأمرها ينبغي أن يؤخذ نقلا من القرآن أو السنة النبوية.

على أنّ رفض القياس، ولاسيما عند غياب ركن من أركان القياس- أعني العلّة الحقيقيّة التي تجوز معها عملية القياس-لا يشمل الافتراض، وعلى نحو خاص ما نسميه بالافتراض التشبيهيّ الذي يُتّخذ وسيلة لتنظيم عمليّة التّفكير عبر مسارات تشبيهيّة لبناء الصورة الذهنيّة التي يدركها العقل لنسق العلاقات وتراتبها ممّا سيتّضح قريبا.

وقد رجح لدينا أنّ التوجّه المنهجيّ في كتاب سيبويه نحو التّفسير والتّعليل كان حاضراً في عموم الكتاب، وهو وسيلة منهجيّة رئيسيّة في تحليله لكلام العرب. ويدعونا إلى هذا الترجيح لَمّا رأيناه يستعمل لفظة فسر ومشتقاتها كثيراً لوصف ما يقوم به من تحليل طائفة من التراكيب اشتملت على مظاهر مغايرة للنمط التراتبي للجملة العربية ممّا يكون من عوارض تركيبيّة، آثرت العرب استعمالها للتعبير عن معانيها، يضاف على ذلك ما هو أكثر أهمية من السبب المتقدم، ذلك أنّ سيبويه أظهر وعيه لمنهجيته في تناول كلام العرب((إذ بيّن في عبارة لطيفة مختصرة وظيفة النحويين عامّة ووظيفتهُ خاصّة عند نظره لكلام العرب، وذلك في عقب طائفة من التركيبات التي اختزل الفعل منها، فنبّه بقوله:((واعلم أنّه ليس

كلّ حرف يظهر بعده الفعل يحذف فيه الفعل،ولكنّك تُضمِر بعدما أضمرتْ فيه العرب من الحروف والمواضع،وتظهر ما أظهروا. وتُجرى هذه الأشياء التّي هي على ما يستخفّون بمنزلة ما يحذفون من نفس الكلام وممّا هو في الكلام على ما أجروا (إلى أن يقول) فقف على هذه الاشياء حيث وقفوا ثمَّ فَسِّرْ)) (١٤) ٠

على أنّ فضيلة هذا المنهج تمثّلت في أنّ سيبويه وأستاذه الخليل وظّفا آليات تحليليّة للدراسة النحويّة أكسبتهما تميّزا واضحا على طول خط الزمن التّاريخيّ للنّحو العربيّ وصولا إلى العصر الحديث.

وتحليلنا لما اشتمل عليه الكتاب قرّر أمورا كثيرة أظهرت مديات التفاعل مع المحيط الخارجي الذي كان أحاط بسيبويه ومن قبله أستاذه الخليل! . ولعلنا هنا سنركز على جانب من التأثير أتّخذ طابعا علميّا صرفا، ولا سيما في طبيعة المنهج النحويّ الذي تبنّاه الخليل وأخذه عنه تلميذه سيبويه فظهر في الكتاب بما أطلقنا عليه المنهج التفسيري التعليليّ، الذي انطلق من بيئته بتمثيل مكوناتها، وإعادة صياغة تلك المكونات في ظل نزعة لغويّة.

والمنهج التفسيريّ التعليليّ: هو المنهج الذي ينظر إلى الجمل المتحققة محاولاً أن يظهر كيفيّة نشوئها وامتدادها وارتباط مكوناتها، وبيان أوجه الحالات الإعرابية لوظائفها وتحوّلاتها بين التقديم والتأخير والحذف والزيادة...، وشمل هذا التفسير عند الخليل وسيبويه البحث عن أصل الجمل ومكوناتها الوظيفيّة والكشف عن البنية التركيبيّة والبنية الدلاليّة للمنطوق(١٥). وعلى هذا فالتعليل بلغ أوجهه لا سيّما عند سبقه بالتفسيريّ، الذي يقوم بتحديد جهة التعليل على نحو يظهر طبيعة التكوينات والصور التي تتخذها وصولا إلى النمط المنطوق. لا أنْ يكون التّعليل محصورا في نطاق الإجابة عن لماذا !!!.

وممّا يمكن أن نلحظه ههنا من أمثلة الكتاب قول سيبويه:((فكأنّه إذا قال الرجلُ للرجل: يا فلانُ فقال لَبَّيك وسَعْدَيْك، فقد قال له قُرْباً منك ومتابَعةً لك، فهذا تمثيْل وإن كان لا يُستعمل في الكلام كما كان بَراءةَ الله تمثيلاً لسبحانَ اللهِ، ولم يُستعمل، وكذلك إذا قال لَبَّيْك وسَعْدَيْك يعني بذلك الله عزّ وجلّ فكأنّه قال أَيْ ربَّ لا أَنْأَى عنك فيشيء تأمُرني به، فإذا فعَل ذلك فقد تقَرَّب إلى الله بَهواه وأمَّا قوله وسَعْدَيْك فكأنّه يقول أنا متابعٌ أمرَك وأوْلياءَك غيرُ مُخالِفٍ، فإذا فعل ذلك فقد تابَعَ وطاوع وأطاع؛ وإنّما حمَلَنا على تفسير لَبَّيْك وسَعْدَيْك لنوضِحَ به وجه نصبِهما لأنَّهما ليسا بمنزلة سَقياً وحَمْداً وما أشبه هذا ، ألا ترى أنك تقول للسائل عن تفسير سَقيًا وحَمْداً إنَّما هو سَقاك اللهُ سَقْيًا وأَحمدُ الله حَمْداً وتقول حَمْداً بدلٌ من أَحمدُ الله وسَقيًا بدلٌ من سَقاك اللهُ ، ولا تقدر أن تقولَ أُلِبُّك لَبًّا وأُسْعِدك سَعْداً ولا تقولُ سَعْداً بدلٌ من أُسعِد ولا لَبًّا بدلٌ من أُلِبُّ ؛ فلمّا لم يَكُنْ ذاك فيه التُمس له شيءٌ من غير لفظه معناه كبراءةَ اللهِ حين ذكرناها لنبيَّن معنى سُبْحانَ اللهِ ، فالتَمستُ ذلك لَلَبَّيْك وسَعْدَيْك واللفظ الذي أشتُقّا منه إذ لم يكونا فيه بمنزلة الحَمْدِ والسَّقْي في فعِلهما ولا يَتصرَّفان تصرُّفَهما)) (١٦).

فهذا النص مشبع بفكرة افتراضية البنية التركيبيّة

اعتماداً على البنية الظاهرة، ويرد التفسير ليكون البديل اصطلاحيّاً للربط بين البعدين في مجال فهم الكلام، مع بروز مصطلح(التمثيل) بمثابة النظير الإجرائيّ لمصطلح الافتراض. وهو أيضا من المصطلحات التي برزت عند سيبويه وجرى توظيفه بوصفه آلية منهجيّة متعلقة بمجال الافتراض، وتفسير البنى الظّاهرة على وفق بنى عميقة، أو أصول كليّة ترتّد إليها الاستعمالات الظاهرة. وأمثال هذا التّحليل كثيرةعند سيبويه سواء ما ذكره عن أستاذه الخليل أم كان من رأيه. ويبرز في النّصّ أيضاً افتراضيّة البنية الدّلاليّة للمنطوق بقوله:(فكأنّه يقول أنا متابعٌ أمرَك وأوْلياءَك غيرُ مُخالِفٍ).

لكنّ التّعليل النحويّ بما فيه من افتراض اتّخذ بُعدا آخر فيما بعد على نحو أصبح محاولة للكشف عن حكمة العرب في كلامها باتّساق ألفاظها على وفق نظام محدّد ومسالكها في هذا الكلام، وهو ما برز عند ابن جنّيّ(ت٣٩٢هـ)ببيان علل سائر الكلام، وأنّ التعدّد لا ينفي الإطار الجامع المعبّر عن اتّساق أجزاء الشيء لرسم صورته الكليّة في ظل البناء الكليّ للغة. وعلى العموم فقد بقي هذا المنحى الافتراضيّ حاضرا عبر مسار التّعليل والقياس في الدّراسات النّحويّة العربيّة، ولكنّه اتّخذ جانبا متقعرا في ظل الباعث المنطقي عند طائفة من النّحويين الخالفين ابتعدوا به عن الحسن اللغوي الذي ظهر في كتاب سيبويه، ثمّ آل النّظر النحويّ إلى تعليم النّحو(أي: معرفة القواعد) لا فهم طرائق العرب في كلامها ومسالكها في نظم معانيها ، واستمر الحال إلى العصر الحديث، فتحوّل الاهتمام نحو مقاربة ما جاء من النّحو العربيّ بالتّوسل بآليات منهجيّة جديدة أفرزتها التّيارات اللغويّة التّي برزت في أوربا وأمريكا.

ونعتقد أنّنا في هذا البحث بصدد التّأصيل لهذا المنحى اللغويّ الذي أقيم عليه نحو الكتاب ونظنّ أنّ بدايته كانت بفعل مؤثّرات نابعة من البيئة العربيّة التّي نشأ بها هذا النّحو، المتمثّلة بالمراكز العلمية في البصرة والكوفة وهي مراكز استندت في امتدادها وثرائها العلميّ إلى أعمال الخليل وسيبويه الجليلة. وكان لها الأثر الفاعل في البناء المنهجيّ والعلميّ والاجتماعيّ للمدرستين ومن ثَمّ لبقية المدارس، إلا أنّنا نعتقد أنّ أصل ذلك كان بفعل التّوجهات العلميّة التّي أرسى دعائمها الإمام جعفر بن محمّد الصّادق(عليه السلام) في إطار سعيه الحثيث نحو التّأسيس للعلوم المختلفة على وفق رؤى علميّة، أسهمت في إبراز علوم شتى وعلماء متخصصين، ولم يقتصر الأمر على الجانب القرآني أو الفقهي بل تعدّى ذلك إلى عقد الحلقات العلميّة حتّى تجاوز عدد من استمدّ علمه من هذا الإمام أربعة آلاف طالب،جماعة منهم من زعماء المذاهب الإسلاميّة كأبي حنيفة النّعمان بن ثابت، ومالك بن أنس، وغيرهما وآخرين ممّن كانوا من المبرزين في علوم الكلام والعقائد والسنن وعلوم القرآن والتفسير. ولم يقتصر الأمر على تدريس العلوم الدينية بل هناك الفلسفة والعرفان الى جانب علوم الفيزياء والكيمياء والطب والصيدلة، وقد تولى الإمام بنفسه تدريس هذه العلوم(١٧). والكلام عن إنجازات الإمام في مجال تدريس العلوم وتأسيس مسارات بعضها أو إحكامها

واسع، وعقدت عليه الدراسات والأبحاث المطولة والمختصرة، مما لا تسعفنا مساحة هذا البحث لتناوله. ونحن هنا سنرصد موضعا تأسيسيّا وريادياً آخر للإمام الصادق(عليه السلام) لم يلتفت إليه الدارسون، وهو وضع الأسس المنهجيّة للعلوم بقيامها على النظر والتدبر والبحث عن العلل الكامنة خلف الظواهر الملاحظة ، فلا يكتفي الإنسان بما يراه ويسمعه بل عليه أن يكشف عن النظام الكامن خلف ذلك، وعلى قدر تعلق الأمر بنا في مجال تخصص الدراسة النحوية لاحظت أن كلام الإمام الصادق(عليه السلام) وتوجيهاته العلميّة قد أسهمت إسهاما فاعلا في تطور الدرس النحويّ عند الخليل وسيبويه، وقد ورد هذا الموضع فيما أملاه الإمام على صاحبه المفضل بن عمر الجعفيّ (١٨)، وقد عرف هذا الإملاء بـ(توحيد المفضّل). وهناك من النصوص الداعمة لما ورد في هذا الكتاب مما نقل من أحاديثه عليه السلام، ولكنني اكتفيت في هذا البحث بما ورد في هذا الكتاب.

وأنوّه إلى أنّ عملاً بحثيّاً سابقاً كان مرتكزه بعض مواد هذا الكتاب، إذ تظهر طائفة من نصوص كتاب (توحيد المفضل)أن الإمام الصادق (عليه السلام) وضع فيه اللبنات الأولى لعلم الأصوات عند العرب، بمساراته الثلاث كما هي عند المحدثين وهي: إنتاج الأصوات، والوسط الناقل للأصوات، وجهاز السمع، مع ما اشتمل الكلام من تحديد مخرجيّ لطائفة من الأصوات تظهر اتفاق الخليل معه فيها. كما أنّ الإمام الصادق عليه السلام كان قد شبّه جهاز النطق بالمزمار الأعظم، وهو تمثيل له أثره في فهم آلية النطق، وريادته في ذلك ممّا له الأثر في الدراسات اللاحقة، ولاسيما عند ابن جنيّ الذي أورد هذا التشبيه في صدر كتابه سر صناعة الإعراب(١٩). وكذا ((رصد البحث ريادة الإمام الصادق(عليه السلام) في مصطلحات صوتيّة؛ تعدّ الآن من أهم المصطلحات الصوتية منها: الصوت ومخرج الصوت، والحرف، والآلة، والتهيئة، وأعضاء النطق التي ذكرها في حديثه عن إنتاج الأصوات، مع مجريات متعددة دخلت في الدّرس الصّوتيّ منها: كيفيّة إنتاج الأصوات وتشبيهه أعضاء النّطق بالمزمار. والرّئة بالزّقّ مصدر هواء الزّفير. ووظيفة الحنجرة التّي يخرج منها صوت صفيريّ كأنبوبة المزمار)) (٢٠).

ولم يقف تأثير الإمام في هذا الجانب عند اللغويين بل تجاوزهم إلى الفلاسفة الأطباء ممن اعتنى بالنظر إلى خلقة الإنسان أو أصواته فهناك من الدّلائل الواضحة على تأثرهم بأقواله الأمر الذي يثبت ريادة الإمام زمنيّاً وعلميّاً في هذا الجانب حتّى لنعدّه عليه السلام المؤسس لعلم الأصوات عند العرب.

المبحث الثانيّ

فكرة البناء الكليّ والمنهج التعليليّ عند الإمام الصّادق(عليه السلام)

كانت القضيّة التي ابتدأ بها كتاب التوحيد القول في حكمة الخالق في خلقه، والعلل الكامنة وراء مظاهر الخلق وتفصيلات تلك الخلقة، وأن إدراك هذه الحكمة تنشأ من تأمل تلك المظاهر، والبرهان على مكمن الابداع الإلهي فيها. ولهذا الإملاء قصة أوردها المفضل بن عمر في صدر روايته ما أملاه

عليه أستاذه الصادق عليه السلام فقد ذكر أنه وهو بقرب قبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) سمع من ابن أبي العوجاء وبعض أصحابه وهما من الملاحدة كلاما عن الله ساءه سماعه، فلم يملك زمام نفسه حتّى نهرهما متعجلا الردّ عليهما فقال له ابن أبي العوجاء:((ياهذا إنْ كنتَ من أهل الكلام كلّمناك، فإنْ ثبتت لك حجة تبعناك، وإن لم تكن منهم فلا كلام لك؛ وإنْ كنت من أصحاب جعفر بن محمد الصّادق فما هكذا تخاطبنا، ولا بمثل دليلك تجادل فينا؛ ولقد سمع من كلامنا أكثر ممّا سمعت فما أفحش في خطابنا ولا تعدّى في جوابنا، وإنّه الحليم الرّزين العاقل الرّصين لا يعتريه خرقولا طيش ولا نزق، يسمع كلامنا ويصغي إلينا، ويتعرف حجّتنا حتّى إذا استفرغنا ما عندنا ، وظننا أنّا قطعناه دحض حجتنا بكلام يسير، وخطاب قصير يلزمنا به الحجّة ويقطع العذر، ولا نستطيع لجوابه ردّاً فإنْ كنتَ من أصحابه فخاطبنا بمثل خطابه)) (٢١).

فأسقط في يد المُفضّل ولم تكن له القدرة على مجاراتهما فلجأ الى إمامه جعفر بن محمد الصادق(عليه السلام)، فأجابه الإمام (عليه السلام) : ((يامفضل لألقيَنَّ عليك من حكمة الباري جلّ وعلا وتقدّس اسمه في خلق العالم والسّباع والبهائم والطّير والهوام وكل ذي روح من الأنعام والنبات والشّجرة المثمرة وغير ذات الثمر والحبوب والبقول المأكول من ذلك وغير المأكول ما يعتبر به المعتبرون، ويسكن إلى معرفته المؤمنون، ويتحير فيه الملحدون؛ فبكر علي غداً)) (٢٢).فما كان من الإمام في اليوم التالي إلّا أنْ بدأ معه ببيان خلق الموجودات، وعلل ما عليه من هيئات أعضائها وتكوين أجسامها ممّا فيه الدّلالة على الله تعالى وحكمته في الخلق؛ وكان المُفضّل قد طلب من الإمام أنْ يكتب ذلك فإذِن له الإمام، ومن ههنا عرف هذا الإملاء بتوحيد المفضّل.

لقد ركّز الإمام الصّادق(عليه السلام) فيما ألقاه على المُفضّل أنْ يأتي في صدار كلامه على مقدّمة تكون مدخلا لبيان موضوع الكتاب وهدفه، وما ينبغي للمخلوقين من التنبّه عليه ومعرفة حكمة الله تعالى فيه حاثّا على تدبّر الأشياء، وتأمّل دواخلها والأسباب التي تكشف تلك الحكمة، وقدرته في خلقه الدّالّة على وحدانيته وحيرة من ألحد فيه، وسلوكه طريق الجهل والتعامي، ابتدأ الإمام كلامه مع المفضّل بقوله:

((إنّ الشّكاك جهلوا الأسباب والمعاني في الخلقة وقصرت أفهامهمعن تأمل الصواب والحكمة فيما ذرأ الباري جلّ قدسه وبرأ من صنوف خلقه في البر والبحر، والسّهل والوعر، فخرجوا بقصر علومهم إلى الجحود وبضعف بصائرهم إلى التّكذيب والعنود)) (٢٣). فنحى بهم ذلك الى إنكار حكمة الخالق وانكاره، قال الإمام:((...حتّى أنكروا خلق الأشياء، وادّعوا أنّ تكوّنها بالإهمال لا صنعة فيها، ولا تقدير ولا حكمة من مدبِّر، ولا صانع؛ تعالى الله عمّا يصفون و(...قاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)(التوبة٣٠، المنافقون٤)...)) (٢٤)

وهنا يأتي وصف الإمام لهم الوصف المهم الذي يؤسس دعوته المنهجيّة بل تصوّره البنائيّ للكون ولسائر العلوم؛ قال الإمام في عقب الكلام السابق

فقال:

((فهم في ضلالهم وغيهم وتجبرهم بمنزلةِ عميانٍ دخلوا داراً قد بُنيَتْ أتقنَ بناءٍ وأحسنِه وفُرِشت بأحسنِ الفَرشِ وأفخرِه وأعدّ فيها ضروب الأطعمة والأشربة والملابس والمآرب التّي يحتاج إليها، ولا يستغنى عنها، ووضع كلّ شيء من ذلك موضعه على صواب من التّقدير وحكمة من التّدبير، فجعلوا يتردّدون فيها يمينا وشمالا، ويطوفون بيوتها إدبارا وإقبالا محجوبة أبصارهم عنها.

لا يُبصِرونَ بِنْيَةَ الدَّارِ وما أُعِدَّ فيها، ورُبَّما عثر بعضُهم بالشيء الّذي قد وُضِع موضعَه، وأُعدّ للحاجة إليه، وهو جاهلٌ للمعنى فيه، ولِمَا أُعِدَّ، ولماذا جُعِل كذلك؛ فتذمّر وتسخّط وذمّ الدّار وبانيها ، فهذه حال هذا الصنف في إنكارهم ما أنكروا من أمر الخلقة، وثبات الصنعة. فإنّهم لما عزبتأذهانهم عن معرفة الأسباب والعلل في الأشياء، صاروا يجولون في هذا العالم حيارى فلا يفهمونما هو عليه من إتقان خلقته وحسن صنعته وصواب هيئته وربما وقف بعضهم على الشيء يجهل سببه والإربفيه فيسرع إلى ذمه ووصفه بالإحالة والخطإ كالذي أقدمت عليه المنانية الكفرة، وجاهرت به المُلحدة المارقة الفجرة،وأشباههم من أهل الضّلال المعلّلين أنفسهم بالمحال،فيحقّ على من أنعم الله عليه بمعرفته وهداه لدينه، ووفقه لتأمّل التّدبير في صنعة الخلائق والوقوف على ما خلقوا له من لطيف التدبير، وصواب التّقدير بالدّلالة القائمة الدّالة على صانعها أنْيكثرَ حمدَ الله مولاه على ذلك، ويرغب إليه في الثّبات عليه والزيادة منه فإنّه(جلّ اسمه)، يقول:((لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُم إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ (إبراهيم٧)..)) (٢٥).

فالإمام ههنا يعيد تشكيل الرؤية الكونية من الاتّساع الّذي يفوق إحاطة البشر، أو الاتساع الذي لا يدري الناظر إليه من أيّ جهة يقبل عليه، الى رؤية منهجيّة ترتكز على فكرة النّظام أو النسق فالكون الهائل الاتساع بمنزلة الدار المنتظم الأركان، والتّشبيه بالدّار الذي يقدّمه الإمام هو تشبيه النّسق، وهو هيأة يدركها العقل ويتصورها الذهن فذلك النّسق بوصفه فكراً كليّاً تجريديّاً، قادر على حصر الأشياء المتّسعة، والنّظر إليه على وفق قانون التّراتبية، أي قانون العلل المؤديّة، فإنّ الجهل هو مكمن الذّم لهذه التكوينات، قال الإمام الصادق(عليه السلام): ((فإنَّهم لما عَزبت أذهانُهم عن معرفة الأسباب والعللِ في الأشياءِ، صاروا يجولون في هذا العالم حيارى... فلا يفهمونما هو عليه من إتقان خلقته)) يأتي الإمام بهيأة الدار((دخلوا داراً قد بُنِيَت أتقنَ بناءٍ وأحسنِه... ووضع كلُّ شيءٍ من ذلك موضعه)).

وهو تشبيه يُلمَح فيه تقرير مستويين من النّظر:

المستوى الأول: الرؤية الكليّة والطابع الافتراضيّ المقترن بها.

المستوى الثانيّ: التأسيس البنائيّ أو بالأحرى الإنشائي الناظر الى كيفية تكوّن الأشياء وكيفية امتداد أجزائها وترابطها الخطي أفقيّا أو عموديّا. وهو الذي يُلمَح من استعمال الإمام لفظة الدّار الواردة في النّصّ كناية عن هذا العالم وانتظام أجزائه وتناسقها.

وإذا كان المستوى الأول يتخذ من الذهن موضعا

لشغله وتحركه فإنّ المستوى الثانيّ تتجلى به مفردات الواقع. فالذّهن يوفر فرصة الافتراض الذي لا يكتسب شرعيّة وجوده إلا في ظل نماذج حسيّة. وعلى الرغم من أنّ كلام الإمام (عليه السلام) ورد في سياق إثبات الخالق وحكمته في تدبير أحوال هذا الكون ودقائق مخلوقاته، إلا أنّه يُمثّل في نظرنا صياغة لمنهجيّة عامّة في كسب العلم والبرهنة على الحكمة، والانتظام فيما خلق الله تعالى. ومن العلوم التي نظنّ أنّها أُسِّست في ظل استلهام هذه المنهجيّة علم العربيّة الذي يمثّله علم الخليل وعلم تلميذه النجيب سيبويه، وندعي أنّ كلا مستويي النظر الافتراضي والإجرائي(بنظرته الإنشائية)قد ظهرا بوضوح عند هذين العَلَمين، ويظهر أنّها منهجيّة جديدة للنّظر النّحويّ خطّها الخليل، وأقيم كتاب سيبويه عليها. وكان الخليل قد رسم أولى مساراتها التحليليّة، على نحو تمكّن من أنْ يكون درسه اللسانيّ درساً مميَّزاً في فهم كيفيّة تكوين الكلام بأنساقه المتعددة ووظائف مفرداته، وما يعتريها من تغاير عن أصولها، بل في كيفيّة القول بوجود تلك الأصول. وقد ظهر من ذلك عندهما ما استدعى بروز مواقف كثيرة تبيّن أنّ هناك نحواً يختلف عن النّحو الذي كان سائداً.وقد تقدّم من ذلك ما سبق ذكره من أنّه عاب على النحويّين اكتفاءهم بالإعراب، وعدم اهتمامهم بمعرفة جهات صحة الكلام وخطئه ولا جهات الإحالة في الكلام والقبح والاستقامة مع ذكر علل ذلك، ووجوه القول فيها، وهو أمر كان مثار تميّز الخليل وسيبويه.

لقد اشتمل قول الإمام الصادق(عليه السلام) المتقدم على طائفة مهمة من الألفاظ البنائيّة لها أثرها في وضوح المقصد ودقّة المطلب وهي ألفاظ : (بنيت، وبنيةالدار وبانيها، وتكونها، والمبني، والبيت). ولعلّ في استعمال الإمام عليه السلام للمركب الإضافيّ (بنية الدار) ما يقترب بوضوح من الفكرة النّسقيّة وافتراضيّة كليّة لبنية الدّار. وهي تؤسس النّظر إلى الأشياء على وفق الصّورة الذّهنية التي مكمنها الفكر لا الاستغراق في الجزئيّات وافتقارها الى الرابط المؤدي إلى تفتت الرّؤية، ومن ثمّ غياب الثمرة الكبرى من التدبّر.

ويواصل الإمام في مقدمته لتقرير هذا الإطار من مستويي التّفكير منتقلا من جزيئاته إلى العالم الّذي يضمها فيقول منبِّها المُفضّل:

((يا مُفضّل، أوّل العبر والدّلالة على الباري جلّ قدسه تهيئة هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على ما هي عليه؛ فإنّك إذا تأمّلت العالم بفكرك وخبرته بعقلك وجدته كالبيت المبنيّ المعدِّ فيه جميع ما يحتاج إليه عباده...)) (٢٦).

والإمام ههنا بعودته الى طرح الفكرة من جديد، يتوجه إلى متدبّر هذا العالمفبعد أنْ ذكرها أولاً من جهة من لا يتدبّر أي الضُّلال(جمع ضالّ)، يتوجَّه الإمام إلى بعض تفصيلات هذا البناء، وهو تهيئة العالم الدّالّة على الاتّساق الكلّيّ،وتآلف أجزاء هذا العالم وترابطها بعضها ببعض، لتكوين صورة هذا العالم أو هذا الدار عبر المسارين السابقين. فالمسار التّجريديّ يلمح من الترابط الخفيّ أو المقدّر بين الأجزاء، والمسار الثاني الظاهر يُلمح من نظم

الأجزاء المكوّنة للبناء الظاهر.فالمستوى التجريدي يظهر في ما ذكره الإمام في اختياره بديلا تشبيهيا عن العالم الملاحظ فهو بمنزلة البيت المنتظمة أجزاؤه، فيقول في عقب النص السابق:((...فالسماء مرفوعة كالسّقف والأرض ممدودة كالبساط والنّجوم مضيئة كالمصابيح والجواهر مخزونة كالذّخائر.وكلّ شيءٍ فيها لشأنِه معدّ، والإنسان كالملك ذلك البيت والمخوّل جميع ما فيه وضروب النبات مهيّأة لمآربه، وصنوف الحيوان مصروفة في مصالحه ومنافعه. ففي هذا دلالة واضحة على أنّ العالم مخلوق بتقديروحكمة ونظام وملائمة، وأنّ الخالق له واحد، وهو الذي ألفه ونظمه بعضاً إلى بعضٍ جلَّ قدسه وتعالى جدّه وكرم وجهه، ولاإله غيره، تعالى عمّا يقول الجاحدون، وجلّ وعظم عمّا ينتحله الملحدون)). (٢٧)

فالإمام في هذا النصّ نحى الى تفصيل وجه المشابهة بين البيت، وهذا العالم ليضع المتدبّر على طريق البحث عن الحكمة في هذا الجزء وذاك؛ فكما أنّ للبيت سقفا فقد جعل الله تعالى السّماء سقفا للأرض، وكذا في النّجوم والأرض المبسوطة فهي بسط البيت ومصابيحه ...كلّ ذلك فيما يمكن أنْ يكون رغبة من الامام في بيان تفصيل ما أجمل ووضوح ما يؤمّل؛ وإنّنا على عظم هذا العالم واتساعه، إلاّ أنّ في الإمكان فهمه كما تُفهَم تفاصيل تلك الدار الصغيرة الذي ألفنا رؤيتها كلّاً وأجزاءً، وتفهم الحكمة في تكوينها.

وتتّضح معالم أخرى للتشبيه بالدّار(الذي تحوّل إلى رمز للكليّة البنائيّة المنتظمة النّسق)،فبدن الانسان وما حواه من قوى بمنزلة الدّار،وما فيها من قوّام يقومون بشأنها، قال(عليه السلام):((...وسأمثّل لك في ذلك مثالاً: إنّ البدن بمنزلة دار الملك له فيها حشم، وصبيةوقوّاممو‌كّلون بالدّار، فواحد لقضاء حوائج الحشم، وإيرادهاعليهم، وآخر لقبض ما يرد وخزنه إلى أنْ يعالج ويهيأ، وآخر لعلاج ذلك وتهيئته، وتفريقه، وآخر لتنظيف ما في الدّار من الأقذار، وإخراجه منها، فالملك في هذا هو الخلاق الحكيم ملك العالمين، والدار هي البدن والحشم هم الأعضاء والقُوّام هم هذه القوى الأربع)). (٢٨) والعبرة ههنا أنّ الإمام يؤكّد على المتلقي أن يتدبّر فيما يراه ، ويحاول أن يفهم أنّ فيما أمامه من الظواهر تشتمل على نظام نسق على وفق بنية محددة ومنتظمة، وأنْ القول بلا تدبير أوانتظام يخالف نتيجة أدنى تدبّر.

ويلحّ الإمام على هذا التشبيه بذكره في موقع آخر بقوله:((أرأيت لو أنّ داخلاً دخل داراً، فنظر إلى خزائن مملوءة من كلّ ما يحتاج إليه الناس، ورأى كلّما فيها مجموعاً معداً لأسباب معروفة أكان يُتوهّم أنّ مثل هذا يكون بالإهمال، ومن غير عمد فكيف يستجيز قائل أنْ يقولَ هذا من صنع الطّبيعة في العالم، وما أُعِدَّ فيه من هذهِ الأشياء)) (٢٩).

فهذا القول يصبّ في الإطار المنهجيّ نفسه للنّصّ الأول الوارد في مقدّمة إملائه على تلميذه المفضّل، إلا أنّأنّ الإمام(عليه السلام) انتقل بفكرة النسق من الكل الضام للأجزاء إلى الأنساق الجزيئة التي تندرج في نسق عام، بمعنى أنّنا أمام أكثر من مستوى للنظر البنائيّ فالدّار ههنا ضمّت في داخلها ما يدلّ على

انتظام الأجزاء وأن وراء ذلك من العلل والأسباب ما ينبغي الكشف عنه .

المبحث الثالث

البناء الكليّ والمنهج التّعليليّ عند الخليل بن أحمد الفراهيديّ

كما هو واضح من النّصوص السّابقة فإنّ ما أورده الإمام جعفر بن محمّد(عليه السلام) من جهات النّظر في دراسة الظّاهرة، وملاحظتها كان منحىً جديداً من النّظر والاعتبار، وفيه تلبية لدعوة القرآن الكريم لتدبّر هذا الخلق وتدبّر ظواهره ففيها الدّلالة على وحدانيّة الخالق وعظمته.وما قدّمه الإمام في إملائه على تلميذه المفضّل بن عمر هو منهج عمليّ للتدبّر للانتقال من بديهة الملاحظة الى الكشف عن أسرار الانتظام في كل أطراف هذا الخلق ويحقق ذلك بالكشف عن العلّل والأسباب وراء ذلك.

وعلى ما يبدو فإنّ الوقوف على العلل والأسباب لم يكن قد سبق تناوله على هكذا نحوّ ممنهج، وهو توجّه يؤسس لمعالم تفكير علميّ للإمام الصادق وبدأه أبوه الإمام الباقر محمّد بن عليّ (عليه السلام) وأتمّه هو، فقد شهدت الحركة العلميّة على يديه تطوراً ملحوظاً تمثّل في سعيه نحو تأسيس طائفة من العلوم المختلفة الشرعية وغيرها كعلم الكيمياء والفيزياء وعلم المنطق والفلسفة الاسلاميّة والطب وبإنشاء مدرسة جامعة تجاوز عدد طلابها أربعة آلاف طالب... ولذا فقد اتّخذ الإمام(عليه السلام) هذا الموقف العلميّ لتدوين ما سيقدّمه لتلميذه الذي لاذ به ووجد عند إمامه ضالته، وموضع حاجته للرّدّ على الملاحدة، والدّهريين من أمثال ابن أبي العوجاء. ويظهر من هذا أنّ مسائل هذا الإملاء بمقدمته المنهجية المحكمة لم تكن ممّا عرفه المعاصرون فضلا عمن تقدمهم، ولو كان ذلك لما خفي على الإمام أو على أصحابه. ثمّ هناك مواضع أخرى ذكر فيها الإمام طائفة ممّا أورده ههنا، ولكنه لم يكن بمثل هذا التدوين الجامع المتسلسل. وعلى ما يبدو فإنّ الإمام كان مجدِّدا في مستوى التّنظير العلميّ والتجريبيّ في هذا الباب، وأبواب علميّة أخرى. والمتتبع لحياة الإمام العلميّة يجده قد حرص على تنشئة علماء متخصصين في هذا المجال العلميّ أو ذاك. فهذا إبان بن تغلب كان عالما بالقراءات والعربية وهشام بن الحكم في علم الكلام وزارة بن أعين في الفقه ومؤمن الطاق في العقائد وغيرهم (٣٠). ويبدو لنا أنّ الخليل بن أحمد الفراهيديّ كان ذلك العالم البارع المتخصص في علم النحو العربيّ فاستطاع بما أوتي من فطنة أنْ يوظّف بعض رؤى الإمام جعفر الصادق ليمدّ النّحو العربيّ بمنهجيّة جديدة، وليبدأ النّحو على يديه مرحلة جديدة من النظر النحويّ العميق. وقد أتينا فيما سبق على ذكر جوانب تمثّل هيمنة واضحة للفكرة النسقيّة الافتراضيّة في كيفيّة النّظر إلى كلام العرب وتحليله. وسنتبيّن أثر ذلك في منهج النحو العربي بل في مجمل النظر اللغوي مما ظهرت معالمه عند الخليل وسيبويه ليصبح علم النّحو العربي علماً تفسيريّاً وتعليلاً يتجاوز ظواهر الكلم والجمل المكتوب منها والمنطوق الى أن يقدّم درساً لغويّاً ذا أبعاد فكريّة ومنهجيّة مختلفة تسبر غور الظاهرة الكلاميّة فتتّخذ

لتحليلها عدّة مسارات لتلتقي عند نقطة تتجمع عندها نتائج تلك المسارات لتبني للجملة، وللكلام صورة كليّة متداخلة من الصّور الجزئية؛ ومن ثمّ لا يخفى مدى التّطور الذي أحدثه فكر هذين الرجلين في الحضارة العربية ونضجها في هذا الجانب من الدّراسة تحديداً وفي غيره تأثّرا به.

ويبدو لي أنّ علم النحو قبل هذه المرحلة التي يمثلها كتاب سيبويه كان علم إعراب يهتمّ بما يقيم العلامات من المرفوعات والمنصوبات والمجرورات، متأثراً على ما يبدو بسيرة قديمة لم يستطع تطويرها إلّا قليلا؛ ولعلّه أخذها عن إرهاصات المرحلة الأولى المتمثّلة بعمل أبي الأسود الدؤليّ عند تنقيطه المصحف الشريف بنقط الإعراب. ثمّ جاء عصر الخليل الذي كان له فضل تطويرها إلى رموز إعرابيّة، عُرِفت بالحركات ليتسنّى للناظر في الكلام أن يلمح هذه الآليّة الإعرابيّة بسرعة، وألاّ تختلط عليه النقط، ولاسيما مع نقط عاصم (أي: نقط الإعجام).

إنّ مُدّعَى تأثّر الخليل الفكريّ بالإمام جعفر الصادق(عليه السلام)، فضلا على ما جرى بيانه من نزعة الطرفين نحو فكرة البناء الكليّ الافتراضيّ، والكشف عن العلل والأسباب الكامنة وراء الظواهر الملاحظة يستند إلى ما جاء في مدوّنة الزجاجي(ت٣٣٧هـ) التي وُسمت بالإيضاح في علل النحو على حين وسمها صاحبها بـ (الإيضاح في أسرار النحو) فقد دوّن فيها عن بعض شيوخه جواب الخليل عن سؤال سئل الخليل، ولعله لم يكن سؤال فحسب بل ربما كان استغراباً أو استنكاراً لطرائقه في التعليل لكلام العرب؛ يعبّر عن حيرة من حوله كيف تأتّى له أن يقول في كلام العرب ما كان يقول من العلل؛ قال الزجاجي:((ذكر بعض شيوخنا أنّ الخليل بن أحمد- رحمه الله-سُئل عن العلل التي يعتّل بها في النّحو، فقيل له:عن العرب أخذتَها أم اخترعتَها من نفسك؟ فقال:إنّ العرب نطقت على سجيّتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها، وقام في عقولها علله، وإن لم يُنقل ذلك عنها، واعتللتُ أنا بما عندي أنّه علّة لما علّلته منه، فإن أصبتُ العلّة فهو الذي التمستُ، وإن تكن هناك علّة له، فمَثَلي في ذلك مَثَل رجلٍ حكيم دخل داراً محكمة البناء؛ عجيبة النظم والأقسام؛ وقد صحت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق أو بالبراهين الواضحة والحجج اللائحة، فكلما وقف هذا الرجل في الدّار على شيء منها، قال: إنما فعل هذا هكذا لعلّة كذا وكذا، ولسبب كذا وكذا. سنحت له وخطرت بباله محتملة لذلك. فجائز أن يكون الحكيم الباني للدّار فعل ذلك للعلّة التي ذكرها هذا الّذي دخل الدار، وجائز أنْيكون فعله لغير تلك العلّة؛ إلا أنّ ذلك ممّا ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علّة لذلك، فإنّه سنح لغيري علّة لما عللته من النّحو هو أليق ممّا ذكرته بالمعلول فليأتِ بها)) (٣١).

فالخليل كما هو واضح استعمل التّشبيه نفسه الّذي استعمله الإمام الصّادق(عليه السلام) الآنف الذّكر مطبّقاً إيّاه على الجانب اللغويّ،وكما يتّضح فهذا الجواب أورد في سياق بيان فعل كليّ اتّسم به جهد الخليل في المجال النحويّ.وعلى ما يبدو فإنّ نصوص سيبويه المتعلّقة بمؤاخذته النّحويين والعيب عليهم

لتوجّههم نحو الإعراب بوصفه غاية عملهم من دون الولوج في أعماق الأنساق الكلاميّة وأنماطها للكشف عن آليات نشأة الجملة وترابط أجزائها - تعضّد بروز حالة الاستغراب ممّا قام به الخليل وطريقته في فهم كلام العرب، فالكلام عنده بمثابة الدار القائمة على حسن الترتيب وأنّ حكمة قائمة من وراء تكوين أجزائها وانتظام مكونات هذه الدار ممّا يظهر للعيان، فإذا دخل حكيمٌ ذلك الدار طفق يكشف عن علل ذلك الترتيب، وتناسق أجزاء الدار، فالتشابه بين ما قاله الإمام الصادق(عليه السلام) وما ذكر عن الخليل من جهة اللفظ واحدة وهي الدار، وإنّ مهمة الداخل إلى هذا هي محاولة الكشف عمّا وراء هذا البناء الظاهر. وهذا الجدول يظهر ذلك بوضوح:

قول الإمام جعفر بن محمّد الصادق(عليه السلام)	قول الخليل بن أحمد الفراهيدي
إنّ الشّكاك جهلوا الأسباب والمعاني في الخلقة وقصرت أفهامهم عن تأمل الصواب والحكمة فيما ذرأ الباري جلّ قدسه... فهم في ضلالهم وغيهم وتجبرهم بمنزلةِ عميانٍ دخلوا داراً قد بُنيَتْ أتقنَ بناءٍ وأحسنِه وفُرِشت بأحسنِ الفَرشِ وأفخرِه... ووضع كلّ شيء من ذلك موضعه على صواب من التّقدير وحكمة من التّدبير، فجعلوا يتردّدون فيها يمينا وشمالا، ويطوفون بيوتها إدبارا وإقبالا محجوبة أبصارهم عنها. لا يُبصِرونَ بِنْيَةَ الدَّارِ وما أُعِدَّ فيها، ورُبَّما عثر بعضُهم بالشيء الّذي قد وُضِع موضعَه، وأُعدّ للحاجة إليه، وهو جاهلٌ للمعنى فيه، ولِمَا أُعِدَّ، ولماذا جُعِل كذلك؛ فتذمّر وتسخّط وذمّ الدّار وبانيها ، فهذه حال هذا الصنف في إنكارهم ما أنكروا من أمر الخلقة، وثبات الصنعة. فإنّهم لما عزبتأذهانهم عن معرفة الأسباب والعلل في الأشياء، صاروا يجولون في هذا العالم حيارى فلا يفهمونما هو عليه من إتقان خلقته وحسن صنعته وصواب هيئته وربما وقف بعضهم على الشيء يجهل سببه والإربفيه فيسرع	فمَثَلي في ذلك مَثَل رجلٍ حكيم دخل داراً محكمة البناء؛ عجيبة النظم والأقسام؛ وقد صحت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق أو بالبراهين الواضحة والحجج اللائحة، فكلما وقف هذا الرجل في الدّار على شيء منها، قال: إنما فعل هذا هكذا لعلّة كذا وكذا، ولسبب كذا وكذا. سنحت له وخطرت بباله محتملة لذلك. فجائز أن يكون الحكيم الباني للدّار فعل ذلك للعلّة التي ذكرها هذا الّذي دخل الدار، وجائز أنْ يكون فعله لغير تلك العلّة؛ إلا أنّ ذلك ممّا ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علّة لذلك، فإنّ سنح لغيري علّة لما عللته من النّحو هو أليق ممّا ذكرته بالمعلول فليأتِ بها.

إلى ذمه ووصفه بالإحالة والخطإ كالذي أقدمت عليه المنانيةالكفرة، وجاهرت به المُلحدة المارقة الفجرة، وأشباههم من أهل الضّلال المعلّلين أنفسهم بالمحال، فيحقّ على من أنعم الله عليه بمعرفته وهداه لدينه،ووفقه لتأمّل التّدبير في صنعة الخلائق والوقوف على ما خلقوا له من لطيف التدبير، وصواب التّقدير بالدّلالة القائمة الدّالة على صانعها أنْ يكثرَ حمدَ الله مولاه على ذلك.	

ويتّضح أنّ الدعوة الى تبنّي الفكر البنائيّ في بناء المعرفة العلميّة عند الخليل واضحة عبر هذا النصّ المهم، وذلك باعتبار الانتظام في المنجز وهو الكلام؛ وهو في المثال الدار المحكمة البناء، التي لا يمكن انكار انتظامها، فكذا رأى الخليل كلام العرب. وهو يمدّنا بكثير من التصورات الملحقة بهذا التشبيه، فاللغة أو الكلام هي البناء الظاهر، وأنّ من وراء هذه البناء الظاهر بنية منتظمة يمكن تصوّرها. ((فالخليل (رحمه الله) ينحو في كلامه المتقدم الى إظهار التّعليل بوصفه وظيفة يمارسها النحويّ لإدراكه مبدأ العلة والمعلول ؛ وإدراكه أيضاً أنّ اللغة نسق محكم البناء. وتكوّن هذا النسق خضع لحكمةٍ، والبحث عن هذه الحكمة وظيفة النحوي، ويعدّ التّعليل المظهر الأكثر بروزاً لهذه الوظيفة، وسيمتدّ البحث عن الحكمة الى الأجيال اللاحقة من النحويّين فنراه يظهر عند ابن جني بوصفه هدفاً رئيساً من أهداف التّعليل في البحث اللغويّ بعمومه)) (٣٢).

وتبقى هذه الصورة البنائية في مستواها التجريدي قائمة، وإن تغير البناء أو انحرف كما في التغيرات التي تطرأ على الجمل من نحو: التقديم والتأخير والحذف والزيادة والبناء للمفعول وغيرها ... ولعلنا من أبرز تطبيقات الخليل لهذا الصورة البنائية ، أن اصطلح على ركني الجملة بنوعيها سواء التي ابتدأت بفعل، وكذا التي ابتدأت باسم بنمط جمليّ جامع هو (سند ومسند إليه) ، فقد ذكر في كتابه العين قوله في السند:((ما ارتفع من الأرض في قُبل جبل أو وادٍ وكل شيء اسندت إليه شيئاً فهو مُسْنَد. والكلام سند ومسند كقولك: عبدالله رجلٌ صالحٌ، فعبد الله سَنَد، ورجل صالح مُسْنَد إليه...)) (٣٣). فلفظة السند مرتبطة بالبناء لاقترانها بمعنيي الارتفاع والاعتماد(٣٤). وهو الأمر الذي أفاد منه سيبويه لتطوير توجهاته النحويّة بإطلاق تسمية (المسند) بدل السند، فاستبطن داخل هذه الصّياغة فاعل الكلام ومنشأه وهو المتكلم، ما قد يكشف عن وجه آخر من نظرة سيبويه لمرحلة التكوين العميقة التي تصاغ فيها البنية التركيبيّة في العربية، وإعطاء المتكلم

قدرته على إحداث الإنتاج اللغويّ وصياغة كلامه بين مستويي الافتراض والأداء.

ولم يقتصر توظيف صورة النسق(الدار) لدراسة كلام العرب التي أرساها الإمام منهجاً علميّاً ووظّفها الخليل توظيفاً فاعلاً في مجال النّحو العربيّ اتّخذت أبعاداً أكثر سعة وظهورا في كتاب سيبويه، فترى سيبويه في كثير من مجريات الكتاب وتراتب أبوابه وتحليل موضوعاته قد ارتكز على هذه الفكرة.وأبرز ما نأتي على ذكره ههنا أن ألفاظ البناء قد كوّنت المنظومة الاصطلاحيّة المهمّة في الكتاب، ولقد استعمل سيبويه في ظل تأثّر واضح بأستاذه الخليل ألفاظ البناء و الانشاء ما يزيد عن استعمال أيّ لفظة أخرى؛ فلفظة بنى وأخواتها في الكتاب استعملت في (٩٨٩) موردا(٣٥). وهذه الكثرة تشير إلى المدى الذي بلغته الفكرة البنائية في نحو الكتاب خاصّة والنحو العربيّ بعده عامّة، ما يدين بالفضل للإمام الصادق(عليه السلام)، ولتلميذه الخليل(رحمه الله).

ثم إنّ هذا الأمر تجاوز الى خصيص المنهج النّحويّ في النّظر الى الظاهرة الكلاميّة بالبعدين أو المستويين الذين ظهرا في كلام الصادق(عليه السلام) الافتراضيّ والتّعليليّ فقد نحا سيبويه إلى توظيف هذين البعدين في نصطلح عليه بالمستوى القبليّفي تحليل الكلام وهو واحد من مجالات التّحليل المهمة التي ظهرت في الكتاب بمسارات متعددة يمكن إجمالها في ثلاثة مسارات أساسيّة هي نظرية الأصول اللغوية والنحوية ومفهوم(تمثيل ولم يتكلم به)، والجملة الأصل في العربية.

والمستوى الظاهر: مستوى التعامل مع المنطوق المؤدَّى من كلام العرب بتصنيف ألفاظه وتراكيبه. فالأصول التي ظهرت عند سيبويه في إطار نظرية الأصول النحوية عنده(٣٦)، وهي التي تمثل المستوى القبلي المتحكِّم بطبيعة تكوين المستوى الظاهر وطبيعة التحوّلات التي تطرأ على الكلام، تنحو الى القول بأنّه تمّ النظر الى:

١. النّظام النحويّ يقوم على أسس عقليّة، قائمة في عقول متكلميّ تلك اللّغة. ويمكن أن تكون تلك الأسس هي مجموعة الأصول التي ظهرت عند سيبويه.

٢. الكلام بوصفه بناءً (نسقاً) منظماً. ويتخذ هذا النسق بعدين: أفقيّ وعموديّ.

٣. تتخذ الجملة التكوين العمودي لوحداتها فمكونات الجملة ترتفع الواحدة فوق الأخرى. وبهذا الصدد نجد تعبير سيبويه عن منزلتي الفاعل والخبر بالمبني عليه، والمسند إليه.

٤. تمثّل كلُّ لبنة في هذا البناء لفظة مرتبطة بلفظة أخرى في الأقل. وتتابعُ اللبنات يمثل سلسلة الكلام.

٥. تتّخذ اللبنةُ الأولى في هذا البناء موقع الأساس الذي ترتفع عليه بقية لبنات البناء، وبذا فكلّ لبنة فيه هي متعلّقة في الأصل بذلك الموقع.

٦ ٠ ويتّضح أنّ هذا النظر النحويّ لم يتأسس أوّلا على مفاهيم مجردة أو تصوّرات غير كلاميّة

بل الكلام (الأداء) هو الذي يُعتمد للكشف عن النظام اللغوي وقواعده؛ لأنّ الدار واقع يتأمّله الحكيم، وهي توظيف للصورة التي عرضها الإمام في قوله((فهم في ضلالهم وغيهم وتجبرهم بمنزلةِ عميانٍ دخلوا داراً قد بُنيَتْ أتقنَ بناءٍ وأحسنِه وفُرِشت بأحسنِ الفَرشِ وأفخرِه ..)) وكذا الخليل:((فمَثَلي في ذلك مَثَل رجلٍ حكيم دخل داراً محكمة البناء؛ عجيبة النظم والأقسام؛ وقد صحت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق أو بالبراهين الواضحة والحجج اللائحة)) فكان لابدّ من الدخول الى هذا الموجود لتأمل اتّساقه ونظمه الدّال على الحكمة.وهو من بعد ليس بعيدا عمّا ألفه الناس في حياتهم، وعلى هذا فالنظرية النحويّة العربيّة التي يمثّلها كتاب سيبويه انطلقت من بيئتها، ومثلتها في كثير من مجرياتها ولم تنزع بعيدا عنها على ما يحلو لجماعة من الدارسين الادعاء أنها أُسست بتأثيرات خارجيّة يونانيّة مرة وأخرى سريانية وأخرى هنديّة، أو غير ذلك؛ ولا سيّما عندما يضعون أمامهم مسألة القول بالعامل النّحويّ، على الرغم من أنّ منطلق القول بها متسق مع فكرة الدار فالعامل هو البنّاء إذا بنى استعمل اللبن على ما ذكر الخليل في معجمه(٣٧).وعلى هذا فقد عمل الخليل وسيبويه على توظيف التصور البنائي للدار ليرسما الهيكل الضامّ المعبّر عن اللغة. وما قدمه سيبويه في هذا الجانب يمكن أن يفسّر في ضوء النص الخليليّ،و الإماميّ على نحو أشمل كلام العرب(٣٨).

خاتمة البحث:

أجمل نتائج البحث في نتيجة عامّة،تكمن أنّ للإمام الصادق(عليه السلام) في مقدمته المنهجيّة التي صدر بها إملاءه على تلميذه المفضل بن عمر الجعفي وهو الإملاء المعروف بتوحيد المفضل كان قد وضع أساسا مهما في الانتقال الى مرحلة تأسيس العلوم على قواعد منهجيّة محكمة، وقد وجدنا في هذه المدوّنة ما يدعو إلى القول بأنّ كلام الإمام هاهنا كان ملهماً للخليل بن أحمد الفراهيديّ ومن بعده تلميذه البارع سيبويه في تطوير الدّرس النّحويّ باتجاه مرحلة علميّة رائدة ، ورائد ذلك دليل مكتوب ومشهور يورد عن الخليل عندما سئل عن علله التي يعتل بها في النحو فذكر رؤيته لما ينبغي أن يكون عليه النحويّ ، وهي رؤية استقاها من الإمام الصادق فكانت فكرة الدار معبرة عن الانتظام التي ملهمة لوضع تصورات افتراضيّة في إطار تعليليّ لتوجيه الانتظام الذي يلمح في أنظمة اللغة . فقد كان من جملة الهموم التي عاشها الإمام أن يأخذ على عاتقه وضع أصول علمية للنظر والتفتيش في كل ما تشتمل عليه الحياة؛ لما في هذا من بيان مظاهر عظمة الخالق جلّ وعلا وتوحيده. وقد بثّ الإمام هذه الأصول في طائفة من محاضراته وإملاءاته ولاسيّما ما أملاه على المفضل بن عمر الجعفيّ فيما عرف بكتاب توحيد المفضل. وقد أظهر البحث المشابه الواضحة بين نصّ الإمام الوارد في مقدمة الكتاب المذكور وما نقله الزجاجي في بيان وجه العلل النحوية التي كان الخليل يقول بها، ما يظهر أنّ الخليل قد أتبع الإمام في دعوته في

النظر الى الأشياء بالكشف عن عللها، فلا يكتفى منها بظاهرها. ولذا وجدنا أن المسارين اللذين اقترحهما الإمام لفهم الأشياء وأعني بهما المسار التجريدي الافتراضي، والمسار التعليلي الذي يؤسس للكشف عن الأسباب الخافية وراء تشكل الظاهرة على هيأتها الملاحظة.

الهوامش

١- التَّعْليلُ فِي الدّرسِ النَّحْوِيِّ (نظرةٌ في أُصُولِ اللّغةِ) بالاشتراك، مجلة جامعة كربلاء، المجلد٧و٨، ٢٠٠٩: ص٢٤.

٢- لقد استعمل سيبويه هذا اللفظ ومشتقاته عند توجيهه للتركيبات النحوية(١٥٠) مرة ، وهو عدد يمثل مدى أهمية هذا المصطلح في النظرية النحوية العربية. ينظر مفهوم الجملة عند سيبويه:٣٥(هامش٢)؛ وينظر: التَّعْليلُ فِي الدّرسِ النَّحْوِيِّ(نظرةٌ في أُصُولِ اللُّغةِ)د.حسن عبد الغني الأسديّ، وم.م.سناء علي حسين/ مجلة جامعة كربلاء/ المجلد٧و٨/ ٢٠٠٩.

٣- طبقات فحول الشعراء: ١٤/١

٤- ينظر: في أصول اللغة والنحو: ١٣١

٥- نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة:٧٧. وهو قول أبي الطيب الزبيدي.

٦- الكتاب:٢/٨٠-٨١.

٧- ينظر مفهوم الجملة عند سيبويه:١٩٦ وما بعدها.

٨- الكتاب:٢/١٢٤.

٩- مفهوم الجملة عند سيبويه: ١٩٨.

١٠- لعلنا يمكن أن نفترض عبر سيبويه أن النّحو الذي كان مهيمنا في تلك الحقبة هو النّحو الشكلي، الذي همه

معرفة الإعراب ؛ وعلى ما يبدو فإنّه مثّل امتداداً تاريخيّاً لمعالم المرحلة الأولى لنشأة النحو العربي التي أقام درسها الأول أبو الأسود الدؤلي(ت٦٩هـ) عندما ابتكر نقط الإعراب لمعالجة ما قد يقع فيه الناس من خطأ عند قراءتهم القرآن الكريم، من غير التفات لأصحاب هذا النّحو أنْ ينظروا إليه بوصفه علما مقنّنا لدراسة الكلام ابتدأت أولى خطواته العلميّة بصحيفة الإمام علي(عليه السلام) التي أعطاها أبا الأسود وبها رسمت أولى خطوات هذا العلم ومنه عرف اصطلاحه(النّحو). للتفصيل ينظر: الإمام علي(عليه السلام) الواضع الأول للنحو العربي، د.وفاء عباس فياض، بحث مقبول للنشر بمجلة الباحث، تصدرها كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة كربلاء.

١١- وعلى ما يبدو فإنّ ما ذكرناه ونذكره عن فرادة نحو سيبويه وأستاذه الخليل تسقط ما بيدِ من جهد جهده للتّوهين من سيبويه وخطوته الرائدة في التدوين النحوي وبراعة أستاذه، فيحيل إلى ما بعض المجهولات ممّا نسبه إلى عيسى بن عمر من أنه ألف كتابين هما : الإكمال والجامع، اللذين صاغهما سيبويه في كتابه وأدّعى علمهما. وتلك على ما نظنّ آفة الحسد لهذين العلمين تنسل من بين المجهولات لتصنع لها على ألسنة مساندة بعض وجود، لا يلبث ناقلوه إلا أن يعترفوا بأعلمية هذين العلمين وتقدّمهما.

١٢- أثر القراءة الافتراضية في التخريجات النحوية (دراسة في التراث):٤٦

١٣- اشكاليات القراءة وآليات التأويل: ٥.

١٤- المفصل في تاريخ النحو قبل سيبويه :٢٩٨/١، الأعلام للزركلي(١٢٦/٢) في ترجمة الإمام جعفر الصادق (عليه السلام).

١٥- مفهوم الجملة عند سيبويه:٣٦ ونص سيبويه في الكتاب:٢٦٥/١-٢٦٦.

١٦- ينظر: مفهوم الجملة عند سيبويه:٣٦ وما بعدها.

١٧- كتاب سيبويه:٣٥٣/١.

١٨- ينظر : الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب: ١٩٢.

١٩- بو عبدالله أو أبو محمّد المفضل بن عمر الجَعفيّ الكوفيّ، ولد في الكوفة في نهاية القرن الأول أيام محمّد الباقر(عليه السلام)(ت١١٤هـ) والد الإمام جعفر الصادق عليه السلام؛ وتوفي في أواخر القرن الثاني في أيام الإمام علي بن موسى الرضا(عليه السلام)(ت٢٠٣هـ)عن عمر يناهز الثمانين سنة. ومنزلته وفضله واضح وقد جمع إلى العلم الجم والفضل الغزير والصلاح والورع شرف الوكالة عن الإمامين الصادق وابنه موسى الكاظم(عليهما السلام). ينظر: من أمالي الإمام الصادق(عليه السلام):١٥، مقدمة المحقق.

٢٠- للتفصيل ينظر: الفكر الصوتي عند الإمام جعفر بن محمد الصادق(عليه السلام) (٨٣هـ-١٤٨هـ) / أ.م.د.حسن عبدالغني الأسدي، مجلة الباحث ، كلية التربية للعلوم الإنسانية، ع٦-٢٠١٣، ص٢٦٥-٢٨٥. ومن

ذلك أن تمّ لي بكلية التربية للعلم الانسانية بجامعة كربلاء اقتراح رسالة ماجستير بعنوان:(التفكير اللساني عند الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام) وقد توليت الإشراف على إنجازها، وهي تتكفل بملاحقة ما يدخل في خانة التوجهات اللغوية للإمام عليه السلام(وهي قيد الإنجاز).

٢١- الفكر الصوتي عند الإمام جعفر بن محمد الصادق: ٢٨٢.

٢٢- توحيد المفضل: ٤٢.

٢٣- توحيد المفضل: ٣٨.

٢٤- توحيد المفضل: ٤٥.

٢٥- توحيد المفضل: ٤٥.

٢٦- توحيد المفضل: ٤٤-٤٧.

٢٧- توحيد المفضل:٤٧.

٢٨- توحيد المفضل:٤٧.

٢٩- توحيد المفضل:٧٦-٧٧.

٣٠- توحيد المفضل:٨٥.

٣١- للتفصيل في هذا الأمر ينظر كتابي: تأسيس الشيعة للعلوم والشيعة وفنون الاسلام.

٣٢- الإيضاح في علل النحو:٦٥-٦٦.

٣٣- تكوين الجملة وامتدادها عند سيبويه:٨٤.

٣٤- لعين: ٢٢٨/٧-٢٢٩؛ وذكره: تاج العروس:٣٨٤/٢(سند). جدير بالذكر أن النص الخليلي على الرغم من أهميته لم يلتف إليه منظرو الجملة العربية قدماء ومحدثين، وكنت قد أتيت على ذكره في أطروحة الدكتوراه (مفهوم الجملة عند سيبويه، المنجزة في ١٩٩٩) وهو نص مهمّ، ويعدّ الإشارة الأولى للإدراك الكليّ في فهم الجملة؛ وقد أظهر لنا تطورا في مسار فهم العلاقات الأساسيّة في الجملة العربية ولا سيما في مرحلة التكوين بين الخليل وتلميذه سيبويه.

٣٥- ينظر مفهوم الجملة عند سيبويه: ١٤٣.

٣٦- ينظر المفهوم التكويني للعامل النحوي عند سيبويه: ١٠ ، الهامش (٤٤)

٣٧- للتفصيل : ينظر مفهوم الجملة عند سيبويه :٢٢٣-٢٤٨.

٣٨- ينظر: العين:١٥٤/٢، وللتفصيل في هذه المسألة يراجع بحث: المفهوم التكويني لنظرية العامل النحوي عند سيبويه، تحليل وتوجيه، وهو بحث استطاع أن يعيد النظر في مفهوم العامل النحويّ عند سيبويه بما يمثّل مقاصد سيبويه في كون العمل هو القدرة على فتح المجال النحوية، التي يمكن وصفها بنظرية نحوية لتفسير

كيفية نشوء الجملة عبر ركنيها الأساسيين المسند والمسند إليه وإشغالها بالكلمات التي تتناسب والكلمة الأولى (المسند) وهي العامل وبيان كيفية امتداد وظائف الجملة وترابطها ،مع بيان نظرته عن وجود الكلم المولدة في نوعي الجملة في العربية وأثرها في تكوين الجمل عبر القدرة على خلق مجالات نحويّة تشغلها الأسماء للقيام بالوظائف النّحويّة المطلوبة لإتمام متطلبات المسند ومراد المتكلم. وللتّفصيل في هذا المجال ينظر: مفهوم الجملة عند سيبويه:١٥٤-١٨٧، (الفصل الثالث، المبحث الثاني م التكوين الخطي للجملة عند سيبويه).

المصادر والمراجع

١- أثر القراءة الافتراضية في التخريجات النحوية (دراسة في التراث)،عرابي أحمد،مجلة جذور ج٣٠، مج١٢، ٢٠١٠م

٢- اشكاليات القراءة وآليات التأويل،د.نصر حامد أبو زيد،المركز الثقافي العربي،المغرب،ط١٩٩٦،٤.

٣- الإمام علي(عليه السلام) الواضع الأول للنحو العربي، د.وفاء عباس فياض، بحث مقبول للنشر بمجلة الباحث، تصدرها كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة كربلاء.

٤-الايضاح في علل النحو،أبو القاسم الزجاجي(٣٣٧هـ) ، تحقيق : د .مازن المبارك ، دار النفائس، مؤسسة مطابع معتوق،بيروت،ط٢،١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

٥- تاج العروس من جواهر القاموس،السيد محمد مرتضى الحسيني الزَّبيديّ،مركز الكتب الثقافية،المطبعة الخيرية المنشأة بمصر،ط ١،١٣٠٦هـ.

٦- التَّعْليلُ فِي الدّرسِ النَّحْوِيِّ(نظرةٌ في أُصُولِ اللُّغَةِ)،د.حسن عبد الغني الأسديّ و م.م سناء علي حسين الحمداني، مجلة جامعة كربلاء، المجلد٧و٨ ، ٢٠٠٩.

٧- توحيد المفضّل، إملاء الإمام أبي عبدالله الصادق(ع) على المفضل بن عمر الجعفي، علق عليه كاظم المظفر،مطبعة الداوري، الطبعة الثالثة ، قم أيران.(النسخة المعتمدة في البحث)

٨- الجمل في النحو،أبوعبدالرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت١٧٠هـ)،المحقق: د. فخرالدين قباوة،الطبعة الخامسة، ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.

٩- طبقات فحول الشعراء،محمد بن سلام الجمحي(١٣٩هـ-٢٣١هـ)، تحقيق محمود محمد شاكر، الناشر: دار المدني – المؤسسة السعودية بمصر.

١٠- كتاب العين،أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي(١٠٠-١٧٥هـ)،تحـ:د.مهدي المخزومي و د.ابراهيم السامرائي،دائرة الشؤون الثقافية العامة،دار الحرية للطباعة،بغداد.

١١- الفكر الصوتي عند الإمام جعفر بن محمد الصادق(عليه السلام٨٣هـ-١٤٨هـ)، أ.م.د.حسن عبدالغني الأسدي، مجلة الباحث ، كلية التربية للعلوم الإنسانية، ع٦-٢٠١٣.

١٢- كتاب سيبويه، سيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت.

١٣- المفهوم التكويني لنظرية العامل النحوي عند سيبويه، تحليل وتوجيه،د.غالب فاضل المطلبي ود.حسن عبدالغني الأسدي، مجلة المورد العراقية، ع٣ ،١٩٩٩م.

١٤- مفهوم الجملة عند سيبويه، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٧.

١٥- من أمالي الإمام الصادق(وهو شرح ما أملاه الإمام على تلميذه المفضل بن عمر الجعفي، محمد الخليلي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.